

هل فاتت الأوان؟!؟

كان على حساب أشياء كثيرة في
حياة الأنثى خاصة.

كانت في عزلة عن العالم كأنها
تعيش في كوكب آخر، لا تدري شيئاً
عما يجري حولها حتى في أسرتها
الصغيرة. من حولها من أخوات
أو قريبات أو جاررات يخطبن، أو
يتزوجن، أو يطلقن، أو ينجبن، أو
غير ذلك، وهي لا تدري عن ذلك
كله شيئاً.

وقل أن لبت دعوة إلى حضور فرح
أو مناسبة، وإذا فعلت جلست على
مضض، لا تكاد تشعر بما يجري من
حولها، بل تستعجل انقضاء الوقت
حتى تعود إلى عالمها الأثير.

وكانت سنوات عمرها تتطوي
سريعة عجلت. تقدم لخطبتها بعض
الرجال، ولكنها أبت ذلك كل الإباء،
ثم تجد نصائح أمها التي قالت لها
عدة مرات:

- الزواج يا أحلام سنة الحياة..
وهو حاجة إنسانية..



د. وليد قصاب

تحقق نجاحاً إثر نجاح، كانت
الأولى دائماً، يشار إليها بالبنان،
كانت الفيرة من نجاحها وتفوقها
تأكل قلوب زميلات بل قلوب جميع
من حولها.

ثم عشقت الكتابة، وراحت تمارس
الإبداع. أخذت ترسل ما تكتبه
إلى الصحف والمجلات، فوجدت
تشجيعاً منقطع النظير، وأصبحت
كتابات الجريئة المثيرة تحتل أحياناً
صدر الصفحات الأولى، وبدأ اسمها
يلمع ويكبر يوماً بعد يوم. ولكن هذا
النجاح الباهر كان يكلفها الكثير،

منذ أن زارت أختها إلهام تغيرت
نظرتها إلى الحياة، بدأت تغزوها
هواجس وأفكار لا عهد لها من قبل.
كانت راضية مطمئنة، تشعر أن
كل شيء على ما يرام، لم يعتراها
أي إحساس أن شيئاً في حياتها غير
طبيعي.

كانت تثقتها بنفسها وبأسلوبها في
إدارة حياتها ثقة مطلقة لا يشوبها
أي شك، فاخرت - باستمرار -
بقدرتها الخارقة على خرق
المألوف، والخروج على النمطي
المعهود، وعلى صنع عالم خاص بها
لا تستطيع الكثيرات من بني جنسها
أن يصنعن مثله.

كان عالمها كتاباً وقلماً، ثقافة
وقراءة. شبت على ذلك منذ
طفولتها المبكرة. استهوها الكتاب،
عشقه عشقاً لم تمسقه أم لأطفالها،
ثم صار عالمها الوحيد الذي لا تعرف
عالمًا آخر غيره.

مضت في الدراسة جادة دؤوباً،



- سأتي يا إلهام.. سأتي إن شاء الله.

* * *

ذهبت. منذ سنوات لم تزر أختها، حتى كادت لا تهدي إلى البيت بسهولة. زارتها أيام زواجها الأولى، باركت لها، و «نقطتها» ثم زارتها بعد ذلك مرات معدودات. استقبلتها أختها بفرح عامر، واستقبلتها أخواتها الأخريات جميعا ببهجة وحبور، ولكن ذلك كله كان ممزوجا بالعتاب الصادق الودود لتقصيرها في زيارتهن..

وبينما كانت أحلام جالسة عند أختها حاضرة غائبة: حاضرة بجسمها، غائبة بذهنها تفكر بأوراقها وكتبها، وهي تتعجل انتهاء هذه الزيارة التي لم تجد مندوحة عن تلبيتها، دخلت ابنة أختها الصغيرة «بيان» كانت طفلة جميلة رائعة، تتدفق حيوية ولطفًا. اندفعت نحو خالتها «أحلام» بحميمية طفولية عجيبة جعلت الجميع يستغربون:

- خالتي أحلام.. اشتقنا إليك كثيرا.. لماذا لا تزورينا يا خالتي؟.. طرقت كلمة «خالتي» لأول مرة سمع «أحلام» كانت تخرج من فم هذه الصغيرة البريئة باهرة عذبة، كأنها نعمة سيمفونية رائعة، أو زقزقة عصفر نشوان!

واندفعت الصغيرة التي لما تبلغ الرابعة من عمرها فجلست في

يقصم ظهرها قصمة شديدة الإيلام إلا موت أمها. أحست فعلا بالوحدة، واستشعرت طعم القلق لأول مرة. أصبحت وحيدة في بيت الأسرة الواسع الكبير، بعد أن تزوج إخوتها وأخواتها جميعا، وانتقل كل واحد منهم إلى بيته الخاص. روضت نفسها على حياتها الجديدة، ومضت في سيرتها الأولى المعهودة.

* * *

رزقت أختها الصغرى إلهام مولودا ذكرا بعد ثلاث بنات، ففرحت الأسرة به غاية الفرح. وأقامت الأم بهذه المناسبة - حفلة، ودعت إلهام أختها الأستاذة أحلام. ولأنها دعتها من قبل مرات عدة ولم تلب، قالت لها في هذه المرة بلهجة تحذير ومودة:

- لن تعتذري يا أحلام هذه المرة.. لن أقبل اعتذارك.. ولن أقدر ظروفك.. ولن أحدثك بعد اليوم إذا لم تأتي.. هكذا ألقت إلهام هذا الكلام كله دفعة واحدة في وجه أحلام حتى تقطع عليها حبل أي مسوغ للتخلف.. ردت أحلام مستسلمة غصبا عنها:

- سأحاول يا إلهام.. وردت إلهام بحزم أشد:

- بل ستأتين.. أسمعيني إياها مؤكدة يا أحلام..

لم تملك أحلام إلا أن تقول:

كانت تقاطعها دائما محتجة منهية حديثا لا تحب له أن يطول:

- أنا سعيدة يا أمي بعالمي.. لا أشعر أن شيئا ينقصني.. وتصر أمها أحيانا على الاستمرار فتقول لها:

- إنها سعادة مؤقتة يا أحلام.. ستشعرين في غد قريب بالحاجة إلى زوج وأولاد.. لا يمكن لامرأة أن تعيش وحيدة إلى الأبد..

* * *

لا أشعر أن شيئا ينقصني، تلك كانت عباراتها التي ترددها باستمرار كلما حادثها أحد في موضوع الزواج.

كان ما يفدق عليها من الثناء، وما يكتب عنها من الإطراء يشعرها أنها غير الأخريات جميعا، إنها أنثى من طراز فريد، تصنع ما لا تستطيع الأخريات أن يصنعه.

لم تكن تزور أو تزار إلا نادرا، حتى أخواتها اللاتي تزوجن جميعا، وصار لهن أولاد، لم تكن تجد الوقت - كما تقول - حتى تزورهن. وقتها مشغول مستهلك دائما.

أين أذهب بهذه الأكوام من الكتب والصحف والمجلات التي علي أن أقرأها؟ وأين أذهب بأوراق الطالبات المتكدسة على مكتبي تنتظر القراءة والتصحيح والتعليق؟..

الزمن يمضي وهي تزداد انتشاء وسعادة بما تحقق من نجاح، لم

والطفلة متعانتان بشكل عفوي رائع.

ما أروع هذه الطفلة ! ما أبهاك يا بيان؟

تحس هذه الخالة - لأول مرة -
بمشاعر دافئة تنبض في أعماقها،
تشعر - لأول مرة - أن شيئاً هاماً
ينقصها.

* * *

دعت إلهام أختها لتعشى عندها، ولم تصدق أذنيها عندما هزت الأستاذة رأسها موافقة بعد أن كان شرط موافقتها على الحضور أن تجلس نصف ساعة على الأكثر ثم تنصرف بسبب كثرة أعمالها. قامت إلهام - غير مصدقة سخاء أختها بالوقت - لتصنع العشاء، وكانت بيان قد غفت في أحضان خالتها.

أطالت أحلام السهر عند أختها، ولم تقلت الطفلة الغافية في أحضانها لحظة واحدة..

خرجت من بيت أختها في آخر الليل بمشاعر لم تألفها من قبل، لم تستطع أن تنام تلك الليلة، كانت فقط تغمض عينيها على طيف بيان الرائع الحبيب، يسري في جوانحها خدر لذيذ، وشوق إلى عالم طالما استهانت به، وكان يهجس في أعماقها هاجس ممزوج بالهفة والقلق: هل فات الأوان؟ ■

و«الفهرتة» قد أزعجت خالتها الجادة الوقور التي لا تكاد تزورهم إلا في مناسبات معدودة، فصاحت بها:

كفى يا بيان.. ابتعدي عن خالتك ولا ترعجيهما.. ولكن بيان كانت تزداد التصاقاً بخالتها، وحاولت إلهام أكثر من مرة أن تبعد الصغيرة عن خالتها، ولكن

حضن خالتها، وطوقتها بذراعيها، وراحت تمطرها بالقبلات.. كان هذا الموقف جديداً على أحلام، لم تعش جو المرح الطفولي هذا من قبل، لم تستشعر في غمرة استغراقها في أوراقها وكتبها وأقلامها براءة الأطفال، ولا بهجة الصغار المتدفقة الغامرة.. وكانت «بيان» قد عانقت خالتها، والتصقت

بها بود عجيب وهي التي لم ترها إلا مرة أو مرتين في حياتها، كانت تحركها غريزة الطفولة، وكانت الكلمات تتقاذف من بين شففتيها مثل نغمات الكمان:

- خالتي «أحلام».. أنا أحبك كثيراً.. وأمي تحبك كثيراً.. نذكرك دائماً.. حدثني أمي عنك طويلاً.. قالت لي: إنك شاطرة متفوقة، أريد أن أكون مثلك يا خالتي.. أحست أحلام أنها تستغرق في نشوة رائعة لا عهد لها بها، تفجرت في أعماقها - في لحظة واحدة - مشاعر الأمومة والحنين واللهفة.

كم هي رائعة هذه الطفلة! احتضنت أحلام ابنة أختها الصغيرة «بيان» بحرارة، ضمتها إلى صدرها بكل ما ملكت من المشاعر الدافئة.

دخلت «إلهام» فوجدت بيان في أحضان أختها، خشيت أن تكون هذه الصغيرة المعروفة بـ«الشقاوة»

كلاً من الخالة والطفلة كانت متشبثة بالأخرى تشبثاً عجيباً، كان رأساهما ملتصقين، وقد أغمض كل منهما عينيها في استغراق حاملة. وكانت أحلام تقول منتشية:

- اتركيها يا إلهام.. دعيها في أحضانني أرجوك.. دخلت إلهام وخرجت أكثر من مرة، والخالة

